﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾ [الأنفال: 27]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

في مناسبةِ هذهِ الآيةِ لما قبلَها وجهانِ:

تحذيرٌ ونهيٌ عن الخيانةِ بعدَ النِّعمِ وحصولِ شكرِها

الأوَّلُ: لمّا ذكرَ اللّهُ بعضَ أسبابِ النَّصرِ؛ ذكرَ سببًا من أسبابِ الهزيمةِ، وهو الخيانةُ، فحذَّرَ المؤمنينَ من أن يُظهِروا الطّاعةَ والاستجابةَ في ظاهرِ أمرِهم، ويُبطِنوا المعصيةَ والخلافَ في باطنِه.

الآخر: لما ختمَ الآيةَ السّابقةَ، وهو في غايةِ النَّصيحةِ منه تعالى لهم من الإيواءِ والنَّصرِ والرِّزقِ الطَّيِّب المشارِ بهِ إلى الامتنانِ بإحلالِ المنعم، وختمَ ذلك بالحثِّ على الشُّكرِ؛ نهى في هذهِ الآيةِ عن تضييعِ الشُّكرِ في ذلك بالخيانةِ في أوامرِه بالغلولِ أو غيرِه، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تذكيرًا بما ألزموا بهِ أنفسَهم من الوفاءِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَخُونُواْ﴾: الخاءُ والواوُ والنّونُ: أصلٌ واحد، وهو التَّنقُّصُ، يقال: تخوَّنني فلانٌ حقّي، أي: تنقَّصني[2].

و"الخيانةُ والنِّفاقُ واحدٌ؛ إلا أنَّ الخيانةَ تقالُ اعتبارًا بالعهدِ والأمانةِ، والنِّفاق يقالُ اعتبارًا بالدّين، ثمَّ يتداخلانِ، فالخيانةُ: مخالفةُ الحقِّ بنقصِ العهدِ في السِّرِّ، ونقيضُ الخيانةِ: الأمانةُ"[3].

والخيانةُ ضدُّ الوفاءِ، فأصلُ معنى الخونِ النَّقصُ، كما أنَّ أصلَ الوفاءِ التَّمامُ، واستُعمِلَ الخونُ في ضدِّ الوفاءِ؛ لأنَّك إذا خُنْتَ الرَّجلَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/261.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (خون).
(3) الراغب، المفردات: (خون).

في شيءٍ؛ فقد أدخلْتَ عليهِ النُّقصانَ – في زعمك –، واستُعمل الوفاءُ في الإتمامِ بالعهدِ؛ لأنَّ من أنجزَ بما عاهدَ عليهِ؛ فقد أتمَّ عهدَهُ[1].

ومعنى ﴿لَا تَخُونُواْ﴾: لا تنقضوا الأمانةَ، وما كُلِّفْتُم به، بل أدّوا التكاليفَ بأسرِها على سبيل التَّمامِ والكمالِ من غيرِ نقصٍ ولا إخلالٍ، والخيانةُ تشملُ كلَّ معصيةٍ خفيَّةٍ[2].

2) ﴿أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾: الهمزةُ والميمُ والنّونُ: أصلانِ متقاربانِ، أحدُهما: الأمانةُ الَّتي هي ضدُّ الخيانةِ، والآخرُ: التَّصديقُ، والأمانة: الوديعةُ الَّتي تودَعُ عند من يحفظُها كأنَّ معنى اسمِها: الَّتي ينبغي أن تحفظَ في حرزٍ أوثقَ الحفظِ، ومؤتمَنُ القومِ: الَّذي يثقونَ بهِ، ويتَّخذونَهُ أمينًا حافظًا، فالأمانةُ تقعُ على الطّاعةِ والعبادةِ والوديعةِ والثِّقةِ والأمانِ[3].

ومعنى ﴿أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾: أداءُ كلِّ حقٍّ مادّيٍّ أو معنويٍّ إلى أهلهِ، ومن الأمانةِ أداءُ ما ائتُمِنوا عَليهِ من الطّاعةِ والامتثالِ وعدمِ الخيانةِ[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الخيانةُ خُلُقٌ كاسرٌ وطريقٌ خاسرٌ وسلوكٌ حاسرٌ

يخاطبُ اللّهُ الَّذين من شأنِهم أن يتقبَّلوا ما سيؤمرونَ بهِ، فقد صدَّقوا اللّه ورسوله، مكرِّرًا فيهم النِّداء بقصدِ الوعي والاعتناءِ والاهتمامِ، فنهاهُم عن معصيةٍ خفيَّةٍ تنقضُ عهدَ الإيمانِ بينَ المؤمنِ وربِّه، وهي خيانةُ العظيمِ سبحانه بتعطيلِ فرائضِه والاعتداءِ على حدودهِ وانتهاكِ محارمِه التي بيَّنها في كتابهِ، ومنها الغلولُ في الغنائِم، وكذلك نهاهُم عن خيانةِ رسولهِ ﷺ فيرغبون عن بيانِه للقرآنِ إلى بيانهِ بأهوائِهم، أو ترك سنَّتِه، أو إفشاءِ سرِّه للمشركين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/322.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/475، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/322.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أمن).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/324، والمراغي، تفسير المراغي: 9/192.

وأعداءِ الدّين، وكذلك نهاهم عن خيانةٍ من نوعٍ آخرَ، وهي نقضُ الوفاءِ بأداءِ ما ائتمنوا عليه، وخيانةِ بعضِهم بعضًا، فمن يخونُ غيرَهُ في أمانةٍ له إنَّما يخونُ أمَّتَهُ التي هو جزءٌ منها؛ لأنَّ للأمانةِ شأنًا عظيمًا في استقامةِ أحوالِ المسلمين[1].

ويختمُ اللّهُ نداءَهُ، وتحذيرهُ ببيانِ أمرٍ مُهمٍّ، وهو أنَّ إقدامَ الإنسانِ على الخيانةِ، وقد علمَ بفطرته أهميَّة الأمانةِ، وعلمَ بشرعِ اللّهِ عِظمها وقبح خيانتها، أو كان من أهلِ العلمِ والمعرفة، هو أمرٌ قبيحٌ شنيع، وفي هذا البيانِ دعوةٌ إلى الامتناعِ عن التَّفريطِ بالأمانةِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ:

التَّحذيرُ من الخيانةِ منهجٌ تربويٌّ لا اتِّهامٌ ضمنيٌّ

الاستئنافُ في قولهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يحقِّقُ اتِّساقَ النَّظمِ القرآنيِّ، فإنَّهُ وإن انقطعت الصِّلةُ الإعرابيَّةُ بين هذهِ الجملةِ المستأنفةِ والجملةِ الَّتي قبلَها، إلّا أنَّهُ لم تنقطعِ الصِّلةُ المعنويَّةُ بينهما، فبعدَ أن أمرَ المؤمنينَ بالطّاعةِ والاستجابةِ للّهِ ولرسولهِ ﷺ يهجسُ في النَّفسِ طلبُ معرفةِ حكم من يُظهرونَ الطّاعةَ والاستجابةَ في ظاهرِ أمرِهم ويبطنونَ المعصيةَ، فنهتِ الآيةُ نهيًا مقصودًا منه التَّحذيرُ؛ إذ لم تسبق من المخاطبينَ خيانةٌ[2].

نكتةُ تَكرارِ النِّداءِ:

نعتُ الإيمانِ لا يجتمعُ مع خيانةٍ ولا يقترنُ بجنايةٍ

الآيتانِ السّابقتانِ لم يتصدَّرهما نداءُ المؤمنين اكتفاءً بما وردَ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾، أمّا هذه الآيةُ؛ فقد تكرَّر فيها النِّداءُ، ولم يكتفِ النَّظمُ بالمتقدِّم؛ لنكتةٍ، وهي الاعتناءُ بمضمونِ الآيةِ، والاهتمامُ بما سيُلقى على المخاطبين،

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 3/183، والقاسمي، محاسن التأويل: 5/279.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/321.

قصدًا لتنبيههم على خطيرِ أمرِ الخيانةِ، وأنَّ المؤمنَ الَّذي نودي بنعتِ الإيمانِ لا تكونُ منه خيانةٌ.

فائدةُ نِداءِ المؤمنين بالاسمِ الموصولِ:

تعريفُ المؤمنينَ بالموصوليَّةِ يؤذِنُ باستعدادِهم لامتثالِ ما يأمرُهُم اللهُ به

نادى اللهُ المؤمنينَ بالاسمِ الموصولِ (الذين) في قولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الموصوفين بهذهِ الصِّلةِ من شأنهم أن يتقبَّلوا ما سيؤمرونَ بهِ، يقولُ ابن عاشور: "وجعلَ طريقَ تعريفِ المنادى طريقَ الموصوليَّة لما تؤذنُ بهِ الصِّلة من الاستعدادِ لامتثال ما يأمرُهم به اللهُ تعالى؛ لأنَّ ذلك أخصُّ صفاتِهم تلقاءَ أوامرِ اللهِ تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ [النور: 51]"[1].

بلاغةُ ترتُّبِ النَّهي على النِّداءِ:

عِظمُ شأنِ المنهيِّ عنه وخطورتُهُ استدعتِ المبالغةَ والتَّأكيدَ بصيغةِ النِّداءِ

رَتَّبَ القرآنُ النَّهيَ عن خيانةِ اللهِ ورسوله والأماناتِ على النَّداء، أي: لم يأتِ النَّهيُ عن هذه المعصيةِ مباشرةً؛ لأنَّ المقامَ في الآيةِ هو المبالغةُ والتَّأكيد؛ فالنَّهي هو من اللهِ العظيم، والمخاطبونَ هم المؤمنونَ الَّذين صدقوا اللهَ ورسولَهُ، فمقامهم عظيمٌ، والفعلُ المنهيُّ عنه في هذا السّياقِ – وهو خيانةُ اللهِ ورسوله والأمَّة – شأنُهُ عظيمٌ، والنَّهيُ بذلك كان عظيمًا؛ ولذلك سُبِقَ هذا النَّهيُ بالنِّداء بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾؛ لأنَّ فيها أوجهًا من التَّأكيدِ وأسبابًا من المبالغةِ، يحتاجها المقامُ، منها: ما في (يا) من التَّأكيد والتَّنبيه، وما في (ها) من التَّنبيهِ، وما في (أي) من التَّدرُّجِ من الإبهامِ إلى التَّوضيحِ.

ثُمَّ كان هذا النِّداءُ للَّذين آمنوا بما يحملُهُ من التَّأكيدِ والمبالغةِ، لتعظيمِ النَّهي الَّذي نُهوا عنه، ولاستثارةِ بواطنِهم وتحريكِ مشاعرِهم للامتناعِ عمّا نُهوا عنه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/29.

غرضُ النَّهي:

التَّحذيرُ من خيانةِ اللهِ ورسولِهِ والأمَّةِ بجميعِ صورِها

الغرضُ البلاغيُّ للنَّهي في قولِهِ تعالى: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ هو التَّحذيرُ، والتَّشنيع، والتَّبشيع أن تقعَ خيانةٌ للّهِ ورسولِهِ ﷺ كما يومِئُ النَّهيُ إلى التَّوبيخِ والتَّأنيبِ لكلِّ من خانَ الأمانةَ، وخاصَّةً أنَّهم يعلمونَ مدى عِظَمِها عند اللّهِ، وامتناع السَّموات والأرض والجبال وإشفاقها من حملِها، ثم بعد ذلك يخونها، ولذا ختمَ الآية بقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، قال ابنُ عاشور: "حذَّرهم من أن يُظهروا الطّاعةَ والاستجابةَ في ظاهرِ أمرِهم، ويُبطنوا المعصيةَ والخلافَ في باطنِه، ومناسبتُهُ لما قبلَهُ ظاهرةٌ، وإن لم تسبق من المسلمين خيانةٌ، وإنَّما هو تحذيرٌ"[1].

كما أنَّ النَّهي هنا يفيدُ العمومَ؛ لأنَّ الفعلَ في سياقِ النَّهي يعمُّ، فكلُّ خيانةٍ وأيُّ معصيةٍ خفيَّة فهي مرادُ هذا النَّهي[2]، وقد ذكر علماءُ التَّفسيرِ صورًا كثيرةً للخيانةِ إلّا أنَّ سياقَ هذهِ الآية وتناسقَها الموضوعيَّ مع بقيَّةِ موضوعاتِ السّورةِ تشيرُ إلى أنَّ المرادَ الأوَّل لمعنى الخيانةِ هنا هو الخيانةُ في الجهاد في سبيل اللّه، فالخيانةُ فيه من أعظمِ الخياناتِ، وكذا الخيانةُ بعدمِ طاعةِ وليِّ الأمرِ، وما يحصلُ من خيانةٍ في الغنائمِ وقسمتِها.

دلالةُ التَّعبيرِ بمفردةِ الخيانةِ:

الخيانةُ معصيةٌ خفيَّةٌ تجرُّ إلى عظيمِ الخطايا

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بمفردةِ الخيانةِ دونَ غيرِها؛ لأنَّ معناها إبطالٌ، ونقض ما وقع عليه تعاقدٌ من دونِ إعلانٍ بذلك النَّقضِ، وهي ضدُّ الوفاءِ، ولمّا كان الإيمانُ والطّاعةُ للّهِ ورسولِهِ عهدًا بين المؤمنِ وبينَ اللّهِ ورسولِهِ؛ ناسبَ أن يستخدمَ مفردةَ الخيانةِ لنقضِ هذا العهدِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/321.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/322.

كما أنَّ في اختيارِ مفردةِ الخيانةِ تحقيقًا لإيجازِ القصرِ؛ إذ إنَّ الخيانةَ على قلَّةِ مبانيها تدلُّ على كثرة معانيها، فتشملُ كلَّ معصيةٍ خفيَّةٍ، كما في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: 19]، ومنها ما وردَ في تفسير الآية من إفشاءِ أسرارِ المسلمين للكفّارِ، كما وردَ في سبب النُّزولِ، وقد فسَّر ابنُ عبّاسٍ خيانةَ اللّهِ: بتركِ فرائضِه، وارتكاب معاصيه، والأمانةَ: بكلِّ ما ائتمنَ اللّهُ عليهِ العبادَ بألّا ينقصوها [1].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ:

في قولهِ تعالى: ﴿لَا تَخُونُواْ﴾ استعارةٌ؛ لأنَّ معنى الخَون: النَّقصُ، كما أنَّ معنى الوفاءِ التَّمامُ، ومنه تخوَّنه؛ إذا تنقَّصَهُ، ثم استُعمل في ضدِّ الأمانةِ والوفاء، فصارت نقصًا خاصًّا؛ لأنَّ من خان في شيءٍ؛ فقد أدخلَ عليه النُّقصانَ فيهِ، فالخائنُ ينقصُ المخونَ شيئًا ممّا خانَهُ فيهِ[2]، فقد شبَّهَ سلوكَ عدمِ الوفاءِ بالحقوقِ بالخوْنِ، وهو النَّقْصُ، وصرَّحَ بهِ على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ، على الاستعمال الشّائعِ الَّذي أصبحَ حقيقةً عرفيَّةً، فتحقَّقَ في هذه الاستعارةِ المعنى اللُّغويُّ، وهو النَّقصُ والقُبحُ العرفيُّ في استعمال هذا اللَّفظِ لما هو على الضِّدِّ من معنى الوفاءِ والتَّمام، فالخائنُ ناقصٌ في تصوُّرِه وسلوكه، وليس بعد ذلك الذَّمِّ من ذَمٍّ.

الخائِنُ ناقصٌ في تصوُّرِه وسلوكِه وهـو في غـايـةِ الذَّمِّ القَبيحِ

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الجليلِ:

عبَّر بالاسمِ الجليل في قولهِ: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ﴾ دونَ غيرهِ من أسمائهِ الحسنى؛ لتربيةِ مهابتهِ وعظمته في النُّفوس التي ما خانتْ إلّا لضعفِ هذه العظمةِ في قلوبها، ولزيادةِ تبشيعِ هذا الفعلِ، فإنَّ الخيانة هي خيانةٌ لحقوقِ اللّهِ تعالى ابتداءً وانتهاءً، فمن شأنِ ذكرِ

مَن عظَّمَ اللهَ في قلبه؛ رعـاهُ في سائرِ أعمالِه

(1) رضا، تفسير المنار: 9/534.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/355، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/475، والبقاعي، نظم الدرر: 3/206.

الاسم الجليلِ، ارعواء المؤمن عنِ الإقدامِ على ما يُغضبُهُ، فإنَّ الخيانةَ مجلبةُ السُّخطِ والغضبِ.

نكتةُ العَطْفِ:

أفادَ العطفُ بالواوِ ثلاثةَ معانٍ، وهي:

خيانةُ الرَّسولِ ﷺ هي خيانةٌ لله سبحانهُ

الأوَّل: وجودُ تغايرٍ بينَ خيانةِ اللّهِ وخيانة الرَّسول ﷺ أي: فللهِ أمانةٌ فيما نصَّ عليها القرآنُ، لا تجوز خيانتُها، وللرَّسول أمانةٌ فيما لم ينصَّ عليه القرآنُ إلّا بتفويضٍ للرَّسول بأن يشرعَ، فإن أطعت الرَّسولَ، فقد أطعتَ اللّه[1].

الثّاني: وجودُ معنًى يجمعُ بينهما، وهو أنَّ طاعةَ اللّهِ هي طاعةٌ لرسولهِ، وطاعةُ الرَّسولِ هي طاعةٌ للّهِ سبحانه.

الثّالث: ذِكْرُ الرَّسولِ بعد اللّهِ تعالى؛ لتعظيمِ شأنهِ وإظهارِ شرفهِ والإيذانِ بأنَّ خيانتَهُ ﷺ خيانةُ اللّهِ تعالى، وقال غيرُ واحدٍ: إنَّ الجمْعَ بينَ اللّهِ تعالى ورسولهِ ﷺ أوَّلًا؛ لأنَّ اختصاصَ اللّهِ تعالى بالأمرِ، والرَّسولِ ﷺ بالامتثالِ[2].

سرُّ التَّعريفِ بـ (ال) لا بالإضافَةِ:

مخالفةُ الشَّرائعِ المنسوخةِ ليستْ خيانةً للهِ تعالى

عرَّفَ البيانُ الإلهيُّ كلمةَ (رسول) بأل التَّعريف لا بالإضافة، فلم يقل: (ورسوله)، والحكمةُ من ذلك إفادةُ أنَّ المقصودَ من الرَّسولِ هو سيِّدنا محمَّد ﷺ لأنَّ لام التَّعريف هنا لامٌ عهديَّةٌ، والمعهودُ مفردٌ فلا يقصدُ بهِ العمومُ، بخلافِ (رسوله) فهو معرَّفٌ بالإضافةِ، وهي من صيغ العموم، وبالتّالي فالمعنى: أنَّ للرسول محمَّد ﷺ أمانةً فيما لم ينصَّ عليه القرآنُ إلّا بتفويض قائلِ القرآنِ للرَّسول بأن يشرِّعَ الشَّريعةَ النّاسخة والخاتمة لكلِّ الشَّرائع، فلا طاعةَ لشرعٍ يخالفها، وخاصَّة أنَّ الخطابَ للمؤمنين أتباعِ النَّبيِّ الخاتمِ ﷺ.

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 8/4665.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 5/154.

دلالةُ تَكرار الألفاظ:

تـهـاونُ الـنّـاسِ بخيانةِ النّاسِ يستدعي تنبيهًا خاصًّا دافعًا لهُ

أعادَ ذكرَ الفعلِ ﴿تَخُونُواْ﴾، ولم يكتفِ بحرفِ العطفِ، الصّالح للنّيابة عن العاملِ في المعطوفِ؛ للتّنبيهِ على نوعٍ آخرَ من الخيانة، فإنَّ خيانتهم اللّه ورسولَهُ نقضُ الوفاءِ لهما بالطّاعةِ والامتثال، وخيانةُ الأمانةِ نقضُ الوفاء بأداء ما ائتمنوا عليهِ من أماناتِ النّاس، أي: الأمَّةُ كلُّها، فمن يخونُ غيرهُ في أمانة له إنَّما يخونُ في المآل أمَّتَهُ التي هو جزءٌ منها[1]، فترجعُ الخيانةُ عليه، فكان تَكرارُ فعلِ الخيانة من باب العنايةِ الخاصة، باعتبار أنَّ الناسَ يتهاونونَ فيها في كثيرٍ من الأحوالِ، ولا ينزلونها منزلةَ خيانةِ اللّهِ تعالى، حتَّى إنَّك لتجدَ بعضَهم ينفي عن نفسِه خيانَةَ اللّهِ عند خيانةِ النّاسِ.

بلاغةُ المجازِ بالحذفِ:

للأمانةِ هيبةٌ في نـفـوسِ الـنّـاسِ وحـــــادةٌ في أسماعِهم

الأماناتُ لا تُخانُ، وإنَّما الذي يُخان أصحابُها، ولكنَّ البيانَ الإلهيَّ في قوله تعالى: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ عدل عن ذكر المفعول الأصلي إلى ذكرِ المفعولِ المتَّسع فيه وهو (الأماناتُ)، فلم يقل: (وتخونوا النّاسَ في أماناتهم)؛ لقصد تبشيعِ الخيانةِ بأنَّها نقْضٌ للأمانة، فإنَّ الأمانةَ وصْفٌ محمودٌ مشهورٌ بالحسنِ بين النّاس، فما يكون نقضًا له يكون قبيحًا فظيعًا[2]، والنّاس يستبشعونَ خيانةَ الأمانةِ، فأتى باللَّفظِ الصَّريحِ عليها، دون ذكرِ النّاسِ؛ لتسامحِ النّاسِ في ظلمِ بعضِهم بعضًا.

فائدةُ إضافةِ الجمعِ إلى مجموعِ المخاطَبينَ:

خـيـانـةُ الـفـردِ خـيـانـةٌ لـلأمَّـةِ وخـيـانـةُ الأمَّـةِ خيانةٌ للنَّفسِ

أضافَ البيانُ الإلهيُّ الجمع (الأمانات) إلى مجموعِ المخاطبين الذي دلَّ عليه كافُ الخطاب وميمُ الجماعة؛ مبالغةً في تفظيع الخيانةِ، بأنَّها نقْضٌ لأمانةٍ منسوبةٍ إلى ناقضِها، وهي نظيرُ قولِه:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/324.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/323.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ [النساء: 29]، فلم يقل: (ولا تقتلوا النفس)، أي: فمن يخونُ غيرَهُ في أمانةٍ له؛ إنَّما يخونُ أمَّته الَّتي هو جزءٌ منها؛ لأنَّ للأمانةِ شأنًا عظيمًا في استقامةِ أحوالِ المسلمين ما ثبتوا عليها وتخلَّقوا بها، وهي دليلُ نزاهةِ النَّفس واعتدال أعمالها، وقد حذَّر النَّبيُّ ﷺ من إضاعتِها والتَّهاونِ بها، وأشارَ إلى أنَّ في إضاعتها انحلالَ أمرِ المسلمين، وقد جعلها النبي ﷺ من الإيمان، وحسبك من رفع شأنِ الأمانةِ أن كانَ صاحبُها حقيقًا بولايةِ أمرِ المسلمينَ؛ لأنَّ ولايةَ أمرِ المسلمين أمانةٌ لهم ونصحٌ[1].

ونلحظُ ملمحًا بلاغيًّا آخر: وهو أنَّ الخطابَ هنا لجماعة المؤمنين، وجاءت الأماناتُ أيضًا جماعةً، لإفادةِ أنَّ لكل إنسانٍ تكليفًا محدودًا، وهو ألّا يخونَ أمانتَهُ، مثلما يقولُ الأستاذُ للتَّلاميذ: أخرجوا أقلامَكم، فهذا أمرٌ لجماعةِ التَّلاميذ بأن يخرجَ كلُّ واحدٍ قلمَهُ[2].

بلاغةُ الجملةِ الحاليَّة:

ممّا يزيدُ قبحَ الخيانةِ وحرمتَها العلمُ بها

جملةُ ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ في موضعِ الحالِ من ضميرِ ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾، وضميرِ ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾، وهي حالٌ كاشفةٌ، المقصودُ منها تشديدُ النَّهي، وتشنيعُ المنهيِّ عنهُ؛ لأنَّ النَّهيَ عن القبيحِ في حال معرفةِ المنهي أنَّهُ قبيحٌ يكونُ أشدَّ، ولأنَّ القبيحَ في حالِ علمِ فاعلهِ بقبحِه يكونُ أشنعَ، فالحالُ هنا بمنزلة الصِّفة الكاشفةِ في قولهِ تعالى: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة: 22] وليس المرادُ تقييدَ النَّهي عنِ الخيانةِ بحالةِ العلمِ بها؛ لأنَّ ذلك قليلُ الجدوى، فإنَّ كلَّ تكليفٍ مشروطٌ بالعلمِ، وكونُ الخيانةِ قبيحةً أمرٌ معلومٌ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/323.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 8/4669.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/323.

فائدةُ تقويةِ الحُكْمِ الإسناديِّ:

تـأكـيـدُ ذمِّ الخيانةِ في حالِ العلمِ على سائرِ الأحوالِ

معلومٌ أنَّ تقويةَ الحكم الإسناديِّ في الجملةِ يزيدُهُ إيضاحًا وتخصيصًا، فتكونُ فائدتُهُ أتمَّ وأكمل وأقوى عند السّامع، وقد تقوَّى الحكمُ الإسناديُّ في قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، حيثُ قُدِّمَ المسندُ إليهِ على المسندِ الفعلي، وفائدةُ ذلك تأكيدُ ذمِّ الخيانةِ في هذهِ الحالِ على سائرِ الأحوال.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارِعِ:

الـخـيـانـةُ مذمومةٌ لذاتِها، وللعلمِ بها، ولاستحضارِ العلمِ بها

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ في قوله: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ بصيغةِ المضارع؛ للإشارةِ إلى أنَّ علمَهم بعظمِ الأمانة وقبحِ خيانتها حاضرٌ عند الخيانةِ، فالذَّمُّ للخيانةِ يزدادُ بالعلم، ويزدادُ أكثرَ، فأكثر عند استحضارِ العلمِ أثناءَ الخيانةِ، فجمعتِ الآيةُ ذمَّ الخيانة، وذمَّها عند العلمِ بها، وذمَّها عند استحضارِ العلمِ بها، فهي ظلماتٌ بعضُها فوق بعضٍ، من دخلَها منطمسًا فيها؛ لم يُبصر نورَ الأمانةِ، ولا ضياءَ الطّاعة.

غرضُ حَذْفِ المفعولِ:

شمولُ العلمِ أشكالَ الخيانةِ وأحوالَ الجنايةِ

حذْفُ المفعولِ في قوله: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ يؤذنُ بالعموم، ولو ذُكر؛ لأوهمَ الاقتصارَ على مفعولٍ واحدٍ، وللعلماءِ في مفعولِ (تعلمون) قولان:

الأوَّلُ: مفعولُ (تعلمون) مقدَّرٌ مَنْويٌّ بقرينةِ السّياق، وهو أنَّكم تخونونَ، وأنتم تعلمونَ تبعةَ ذلك، أي: تعلمونَ قبحَها، فإنَّ المسلمين قد تقرَّرَ عندهم في آدابِ دينِهم تقبيحُ الخيانةِ، بل هو أمرٌ معلومٌ للنّاس حتَّى في الجاهليَّة.

الآخر: مفعولُ (تعلمون) غيرُ منويٍّ بمنزلة اللّازم[1]، فيكونُ معناهُ (وأنتم ذوو علم) أي: معرفةُ حقائقِ الأشياء، أي: وأنتم

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 7/79.

علماءُ، لا تجهلون الفرقَ بين المحاسنِ والقبائح، فيكونُ كقولهِ: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: 22].

وفي كلا الحالين أفادَ حذفُ المفعولِ العمومَ، أي: وأنتم تعلمونَ قبحَ فعلِكم، أو تعلمون أنَّ المنهيَّ عنه قبيحٌ، أو تعلمون عظمَ الأمانةِ ومخاطرَ خيانتِها، أو أنتم أهلُ علمٍ ومعرفةٍ لا تجهلونَ قبحَ الخيانةِ أو غير ذلك ممّا يقتضيهِ السّياقُ.

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيَّةِ:

العلمُ بعظيمِ الخيانةِ مانعٌ من إتيانِها

أفادتِ الفاصلةُ ﴿تَعْلَمُونَ﴾: إحكامَ اللَّفظِ وإحكامَ المعنى.

أمّا إحكامُ اللَّفظِ؛ فلكونِها مع الفاصلةِ الَّتي قبلها ﴿تَشْكُرُونَ﴾ فاصلة مُطَرَّفة، أي: متخالفتان في الوزنِ متَّفقتانِ في الحرفِ الأخيرِ.

وأمّا إحكامُ المعنى؛ فقد جاءتِ الفاصلةُ مناسبةً للمعنى الَّذي مهَّدَ لها، بل كانت جزءًا منهُ، فقد خُتِمَتِ الآيةُ بالعلمِ للإشارةِ لعظمِ تلك الأمانةِ وقبحِ التَّفريطِ بها.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العلمُ والمعرفةُ:

العلمُ أعلى درجةً من المعرفةِ، فالمعرفةُ يسبقُها جهلٌ، والعلمُ نقيضُ الجهلِ

العلمُ والمعرفةُ يشتركانِ في معنى الإدراك، وقد يستعملُ أحدُهما مكانَ الآخرِ؛ إذا كانَ العلم يتعدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ، حيثُ عرَّفَ بعضُهم العلمَ، فقال: "علِمَهُ يعلمُهُ علمًا: عرَفَهُ حقَّ المعرفةِ"[1].

وإذا تعدَّى العلمُ إلى مفعولينِ؛ فإنَّهُ يتميَّزُ عن المعرفةِ في أنَّهُ: إدراكُ الشَّيءِ بحقيقتهِ ودليلهِ، أي: العلمُ بحقائقِ الأشياءِ، ولا بدَّ في العلمِ من الدَّليلِ.

بينما المعرفةُ: إدراكُ الشَّيءِ بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ لأثرِهِ، أي: معرفةُ ذواتِ الأشياءِ والظَّاهرِ منها، ولا تحتاجُ إلى دليلٍ، كما أنَّ المعرفةَ ضدُّها الإنكارُ.

(1) الفِيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 4/88.

فالعلمُ أعلى درجةً من المعرفةِ؛ إذ تستعملُ المعرفةُ في العلمِ القاصرِ المتوصَّل بهِ بتفكُّرٍ، ويسبقها الجهلُ بالمضمونِ، أمّا العلمُ؛ فلا يسبقُهُ جهلٌ، فهو مرحلةٌ بعدَ المعرفةِ بحقِّ المخلوقينَ، وبالنِّسبةِ للّهِ تعالى، فلا يُقالُ: اللّهُ عالمٌ، ولا يقالُ: اللّهُ عارفٌ، كما أنَّ المعرفةَ ضدُّها الإنكارُ، والعلمُ لا يضادُّهُ الإنكارُ[1].

(1) الراغب، المفردات، ص: 561، ومحمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 343 - 344، وعلي فهمي النزهي، الفروق اللغوية في تفسير الكلمات القرآنية، ص: 129.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»